3

النشأة في عالم السياسة

يختـار العديـد من الناس الانخـراط في العمل السياسي كطلبـة نَشِطين في الجامعة، أو كمواطنـين مـن الأجيال الشابة المهتمين بقضايا مدنيـة، أو كأشخاص متوسطي العمر المهتمين بقضايا مجتمعاتهم. القليـل منهم، مثلي، يولدون والسياسة تجري في عروقهم. فلقد انخرطت في العمل السياسي بشكل أو بآخر، منذ نعومة أظفاري.

كانـت والدتـي نموذجاً طليعياً للنسـاء في حقل السياسة. ففي سنـة 1972، عندما كنـت أبلغ من العمر أربع سنـوات، تم انتخابها لعضوية مجلس أمنـاء مدرسة أوستن. بعـد سنين قليلـة، أصبحت أول امرأة تتبوأ مقعد رئاسـة المجلس. ومع اقتراب انتهائي مـن الدراسة في الصـف الثالث الابتدائي انتخبت كأول امـرأة لمنصب محافظ مدينة أوستن، وأعيد انتخابها ثلاث مرات متلاحقة مدة كل منها سنتين في سابقة لم تشهدها المدينة من قبل.

أذكر أنني ذهبت إلى مؤتمر محافظي الولايات المتحدة في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا مع والدتي وأخويّ التوأم الأكبر مني سناً خلال رئاستها الأولى في نهاية السبعينات. كانت ترافق فترة انعقاد المؤتمر دائماً احتفالات خاصة بالنسبة للأولاد، بينما ينهمك المسؤولون المنتخبون في عقد الاجتماعات.

كنـا نذهـب، من بـين النشاطات الأخـرى، إلى منطقـة الملاهي التـي تسمى «ستة أعـلام ترفرف فوق جورجيا». كنت ولداً صغيراً، أحـب دائماً الإثارة الناجمة عن لعبة الأفعوانية في مدينة الملاهي (لم أكن في ذلك العمر أعرف سوى القليل عما يمكن لهذه اللعبـة أن تمثلـه كتحضير جيد لأي شخص يود دخول معـترك السياسة). كان أخواي الأكـبر مني سنـاً أقل حباً للمغامرة منـي (لا أحاول هنا الإشـارة إلى عامل ضعف في الشخصيـة!)، أو ربما أقل رغبة مني في الانتظام في صـف طويل للاستمتاع بدقيقتين

من ارتفاع نسبة الأدرينالين في الدم. وهكذا، كانا يتركاني أنتظر وحدي في الصف من أجل هذا الانقلاب المزدوج في الهواء الذي يكاد يذهب بالعقل. بينما كنت أقف هناك واضعاً بطاقة كتب اسمي عليها بأحرف كبيرة مطبوع عليها شعار مؤتمر المحافظين، نظر إليها طالب جامعي بحجم مساعد حكم في لعبة كرة القدم وسألني: «إذاً، والدك هو محافظ مدينة أوستن؟»

وحيث إنني كنت حينها في سن العاشرة، وكوني غير مدركٍ كم كان غير مألوف ذلك الإنجاز الذي حققته والدتي في تلك الأيام، فقد أجبته بكثير من الثقة: «كلا، إنها والدتي».

بدت علامات الدهشة على وجه ذلك الشاب الذي هتف لأصدقائه: «اسمعوا يا شباب، إليكم هذا النبأ. والدة هذا الفتى هي محافظ أوستن!»

احمرّ وجهي قليلاً بسبب أنني تسببت في لفت النظر إليّ من دون أن أرغب في ذلك في طابور انتظار لعبة الأفعوانية، لكن ذلك لم يمنعني من مشاركتهم قليلاً في الحديث عن واحد من الأبطال الذين أعتبرهم مثلاً أعلى بالنسبة لي - والدتي. كان ذلك درساً سياسياً مبكراً بالنسبة لفتى لم يفكر حينها كثيراً بمغزى جنس والدتي في منصب محافظ، أو كم كان من غير المألوف في تلك الأيام أن تشغل امرأة منصب قائد سياسي.

بالنسبة لي، كانت امرأة خارقة مفعمة بالطاقة والحيوية: كانت تعد لنا غداءنا الذي نتناوله في المدرسة، وتحضر طعام العشاء (عندما يتوفر لها الوقت)، وكانت تأخذني بالسيارة إلى مباريات التنس، وتحضر المباريات الصغيرة التي كنت أخوضها في الدوري، وتساعدني في واجباتي المدرسية، وتشتري لي شطائر الهامبرغر والبطاطا المقلية من مطعم هوليدي هاوس في الجوار، وكانت تعاقبنا أنا وإخوتي عندما نسيء التصرف، وتسمح لي أن ألهو في مكتبها، أو في غرف المجلس الخلفية، وتأخذني إلى حفلات الاستقبال (يمكن أن أضيف هنا أن تلك الحفلات كانت كثيرة جداً)، وتدير فيما تبقى لها من الوقت، شؤون مدينة كبيرة.

obeikandi.com

كانــت والدتــي معظم وقتهــا في منصب محافظ للمدينــة أماً عزبــاء. كان ذلك يبدو طبيعيــاً بالنسبــة لي في سن ما قبل المراهقة. الآن فقــط أستطيع أن أقدر بشكل كامل كم كانت والدتي وما تزال، امرأة متميزة.

انفصل والداي بالطلاق عندما كنت في سن العاشرة. لم أكن حينها أفهم لماذا حدث ذلك. كان والدي الذي يعمل محامياً أباً صالحاً بالنسبة لي في تلك السنين البريئة، لكننا ابتعدنا عن بعضنا بعضاً مع مرور السنين.

كانــت لدي ذكريات دافئة مع والدي، شأني في ذلك شأن معظم الأطفال: كنت أمسك بشعــر صدره عندما كان يتظاهــر بأنه سوف يرمي بي وأنا في ســن الرابعة أو الخامسة، في المياه الزرقاء من الطرف العميق لبركة السباحة، وكان يحملني عالياً بين ذراعيه وهو يمشــي في عتمــة الباحة الأمامية لمنزلنا وهو يشير إلى مجموعة الدب الأكبر أو إلى نجوم الجــوزاء، أو يقص علينا حكايــات من الأسطورة الإغريقيــة، أو يساعدني في التدرب مع فريــق البيسبول الصغير. لكــن الأوقات التي تحدثنا فيها إلى بعضنــا بعضاً أو قضيناها سويــة أضحت أقل، وأكثر تباعداً بعد الطلاق بينه وبين والدتي. نادراً ما نلتقي أو نتحدث إلى بعضنــا بعضــاً هذه الأيــام، لكنه ما يــزال الأب الذي أعرفه، والــذي أتذكره بشغف، والذي سيبقى حبي له دائماً غير مشروط.

كنــا، أخواي وأنا، محظوظين لأننا كنا مقربين جداً من أجدادنا الأربعة، وقد كان لهم تأثير إيجابي عارم علينا ونحن نتجه إلى بلوغ سن الرشد.

كانت جدتي ماكميلان التي عملت متطوعة في مخزن الكنيسة التجاري، وقامت بتعليم الإسبانيــة في مدارس الحضانة في مدينة سان أنطونيو، تحــب أن تدللنا وتتركنا نستمتع بأوقاتنــا. قامت بتربية أربع بنات وصبي واحد، هو والدي؛ بينما كان جدي يعمل مهندساً بترولياً، وهو أحد أوائل الخريجين مــن جامعة تكساس الذين يحملون شهادة جامعية في هــذا التخصص. كان رجلاً طيبــاً، نحيل البنية؛ لم يكن يتحدث كثيراً؛ ولقد نشأ وترعرع في مدينــة صغيرة بولاية تكســاس. كان يستمتع بقضاء أوقات فراغــه مع العائلة، والعمل في فنــاء منزله المتواضع في مدينة سان أنطونيو، بالإضافة إلى الاستماع إلى التعليق على

مباريـات فريق لونغهـورن تكساس لكرة القـدم والبيسبول على جهـاز الراديو الذي كان يضعـه بجانـب مضجعه. لم تكن مقدرته على السمع على ما يرام في سني عمره الأخيرة، لكن مجرد التواجد بالقرب منه كان يمنحنا شعوراً بالارتياح.

مـن ناحية أخرى، كان جدنا كيتون يُدرّس القانون، وكما كانت والدتي تحب دائماً أن تقـول، في عائلتنا كانت جدتي كيتون هي القانـون. التحقت جدتي كيتون بجامعة تكساس في أوائـل الثلاثينات مـن القرن الماضي منتقلة من جامعة جورجيـا في مدينتها الأصلية، أتلانتـا للدراسة في كلية الحقوق. سجلـت في الصف الذي كان يقوم بتدريسه جدي. كان أستـاذاً شاباً تخرج حديثاً من كلية القانون، وحدث ما حدث بعد ذلك. لم تنهِ جدتي أبداً دراستهـا في مجال القانون. كانت تعتني بـي وبأخويَّ كثيراً، ترعى شؤوننا وتتأكد من أننا نحسن التصرف.

كان جـدي بيـج كيتون عميد كليـة القانون الشهـير في جامعة تكسـاس. كان شخصاً حـاد الـذكاء. تزوج من جدتي في الرابع مـن آذار، مارس؛ أو كمـا كان يحب أن يمازحنا بالقـول: «بعد يومين مـن حصول تكساس على استقلالها [الـذي يحتفل به في الثاني من شهـر آذار كل سنة] فقدت أنا استقلالي». وبدلاً مـن الإشارة إلى عدد السنين التي مرت علـى زواجهما، كان يتحدث عن الجولات «الثلاث والستين» التي خاضاها عند احتفالهما بعيد زواجهما.

لم يكـن الاثنان يفترقان أبداً. حتى هذا اليوم، ينتابني شعور بالألم عندما أتذكر تلك اللحظـة التي أخذت فيها جدي لعيادة جدتي المريضـة في المستشفى. كانت في المستشفى منذ بضعة أيام، في الوقت الذي كان هو غير قادر على الحركة من دون مساعدة الكرسي المتحـرك أو الهيـكل المساعد على المشـي بسبب الوهن والتقدم في السـن، وكان مضطراً لملازمة المنزل، معانياً من القلق على مصير شريكة حياته.

أجلستـه في الكرسي بجانب سرير جدتي في المستشفى. لم تكن تقوى على الجلوس في اليـوم الـذي زرناها فيه. لاحظت أن جدي كان يحاول بأقصى ما أوتي من قوة كي ينحني إلى الأمام وهو جالس في كرسيه. كان يحاول دفع نفسه إلى الأعلى، فأمسكت به من تحت

ذراعيــه كي أساعده. كان يركز على شيء واحد فقــط - جدتي. استطاع أخيراً الوقوف، وهــو يرتجف قليــلاً، وقد استخدم كل ما أوتــي من قوة كي ينحني ببعض المساعدة مني ويقبلها وهو يقول: «أحبك يا مادج. آمل أن تعودي قريباً إلى المنزل».

في تلــك اللحظة، فكــرت أن ذلك كان كل ما في الأمر. فهنا يقــف إنسان حقق الكثير، وكان يمتلك قدرات فكرية عظيمة وشخصية قوية؛ لكن ما يهم بالنسبة له في سني حياته الأخــيرة هــذه أكثر من أي شيء آخر ليس كل ما قام بإنجازه في مجال اختصاصه، بل ما تقاسمه مع عائلته التي قدم لها الخير الكثير.

نشأ جدي في مزرعة صغيرة في الشمال الشرقي من ولاية تكساس. بعد أن كان يقطف القطــن في شبابــه المبكــر في مقاطعة ريد ريفــر، أقسم أنــه سوف يحصل علــى «وظيفة ثابتــة» عندمــا يكبر في السن. وجد تلــك الوظيفة، ومعها منضدة لتــلاوة الكتاب المقدس في كليــة القانــون في جامعة تكساس. بعــد أن شق طريقه بفترة وجيــزة في كلية القانون، قــام بشق طريقه نحو منصب الأستاذية. وانتهى به الأمــر إلى سلك التدريس إلى أن بلغ سن السادســة والثمانين. عمل لمدة خمس وعشرين سنة عميداً لكلية القانون وحولها إلى واحــدة من أفضل كليات القانون في كافة أنحاء الوطن؛ وأصبح في ما بعد واحداً من أهم خبراء قانون الضرر في البلاد.

رويــت لي منذ عدة سنوات قصة طريفة عن جــدي، أخبرني بها صديق للعائلة تخرج من كلية القانون بجامعة تكساس، بعد وفاة جدي بفترة قصيرة. كان هذا الصديق يدرس في واحد من المقررات التحضيرية للقانون التي كان جدي يقوم بتدريسها.

كان جــدي يقف على منصة غرفة الصف التي تشبه المسرح، وينظر من فوق نظاراته التــي كانت تسترخي فوق أرنبــة أنفه، وسأل الطلبة عن السمات التــي يجب أن يتمتع بها المحامي النــاجح. قفز أحد الطلبة من مقعده في الصفوف الخلفية في نهاية الغرفة وقال: «أيهــا العميد كيتون، أنا مؤمن بــأن الصحيح هو الصحيح، والخطأ هو الخطأ، كما أؤمن بحتمية انتصار الخير على الشر. هل تظن أن هذا يؤهلني كي أصبح محامياً نــاجحاً؟»

ولكـن، مـن دون أن يضيع لحظـة واحدة، نظر جـدي إلى ذلك الطالـب وأجابه: «لا، ولكنك سوف تكون مرسالاً ناجحاً». ضجت بعدها القاعة بالضحك.

تأملـت في هذه القصة التـي تعكس صورة الرجل الذي أعرفـه؛ الرجل الذي كانت له طريقتـه العظيمة الذكية في طرح أفكاره. كان جـدي يشرح للطلبة أن القانون ليس دائماً الأبيض مقابل الأسود، ولا يجوز لمحامٍ أن ينظر إليه من هذه الزاوية. فالحقيقة تميل إلى احتواء خطوط رفيعة من الفوارق، وظلال من اللون الرمادي.

كانـت سـاعـة جدي التدريسية توصف مـن قبل الطلبة بأنها سـاعـة الكوميديا. إلا أنه كان يشتهـر بالكم الهائل من المعرفـة التي يمتلكها عن القانون، وبالتأثير الذي يحدثه في تطويـره نحو الأفضل. أما بالنسبة إلى زملائه في حقـل اختصاصه الذين عرفوه وتعلموا منـه، فقد كان جـدي بالنسبة إليهم أكثر من مجرد رجل صالـح؛ لقد كان إنساناً عظيماً استحق الاحترام، وحاز على الإعجاب، وكان على الآخرين مجاراته في ذلك.

كانـت بعض أفضل الأوقات التـي قضيتها مع جدي وجدتي هي تلـك التي كنا نحضر فيهـا مباريات كرة القدم في جامعة تكساس. فقـد كانت لديهما أربع بطاقات مخصصة لأعضاء هيئة التدريس؛ وكنت في العادة أدعو صديقاً لحضور المباريات معنا.

بـدأت حضور مباريات كرة القـدم في جامعة تكساس في سنـي عمري الأولى في عقد السبعينات، وأتذكر بكثير من الشوق الأيام التي كان يلعب فيها إيرل كامبل، الفائز بكأس هيسمـان، ولقبنا الوطني الـذي خسرناه. كانت كرة القدم في جامعـة تكساس جزءاً من حياتنا العائلية، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتي أيضاً.

بالعـودة إلى عقد الخمسينات وأوائل الستينات، اعتاد جـدي أن يكون رياضياً أيضاً. فقد تم التعاقد معه لفترة وجيزة كعميد لكلية القانون في جامعة أوكلاهوما قبل أن يصبح عميداً لكلية القانـون في جامعة تكسـاس. وكان أيضاً عضواً في المجلـس الرياضي الذي سـاعـد في التعاقد مع بـاد ويلكينسون لصالح جامعـة أوكلاهوما. قـاد ويلكينسون فريق سونـرز الرياضي إلى الفوز على فريق جامعة تكساس في واحدة من أكثر المنافسات إثارة في الرياضة الجامعية.

عرفت زوجتي المستقبلية، جيل، أن الغزل بيننا كان جاداً كوني سمحت لها بأن تحتفظ ببطاقات الموسم العائدة لي. كانت تعيش في أوستين، وكنت أعمل في واشنطن عندما التقينا.

في مرحلة الشباب، كانت السياسة والأحداث الجارية هي ما كنا نتحدث عنه ونناقشه ونحن جالسون إلى طاولة المطبخ، أكثر من الحديث عن الألعاب الرياضية في لونغهورن. تعلمت أن السياسة هي طريق يمكن بواسطتها إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس. كان جدي يحب أن يقول: «ليست المسألة في كمية الدولارات التي تكسبها، بل في الفرق الذي يمكن لك أن تحدثه بواسطتها»، وكان يشير بذلك إلى ما يهم أكثر في حياة الإنسان.

أن تنشأ تحت الأضواء السياسية المحلية في أوستين، هو أمر له إيجابياته وسلبياته. حاولت والدتنا المحافظ، أن تبقي الأشياء طبيعية كما هي، ولم نحاول أبداً، أنا وإخوتي الثلاثة، أن تكون تصرفاتنا خارج نطاق ما هو طبيعي. اعتادت والدتي أن تذكّرني بالقول: «ما يقوم به أصدقاؤك شيء، وما تقوم به أنت، يمكن أن يصل إلى الصفحات الأولى في الصحف».

حاولنا تجنب لفت الأنظار إلينا من دون مسوغ وبأي ثمن، في الوقت الذي كنا نمارس حياتنا بطريقة طبيعية. وبالرغم من أننا كنا أبناء المحافظ، فإننا لم نكن لِنَدَعَ حياة الأبهة والاحتفالية والأضواء السياسية تغير من طبيعة حياتنا – فقد كنا مجرد أولاد نحاول أن نكبر ونحن نستمتع بحياتنا وسط عائلة من الطبقة الوسطى.

حاولت والدتنا قدر المستطاع أن تبقينا متواضعين. لم أكن سعيداً جداً يوم أخذتني بسيارتها من المدرسة عندما كنت في المرحلة الإعدادية وأخبرتني أن علينا أن نتوقف لحضور حفل استقبال الخريجين السابقين من جامعة تكساس أي- إم في وسط المدينة، وأنه ليس لدينا الوقت الكافي كي نمر بالمنزل.

كنت ألبس قميصاً قصير الكمين باللونين البرتقالي والأبيض ويحمل الرقم 1 عند ذهابي إلى المدرسة في ذلك اليوم لأنه كان أسبوع المنافسة في كرة القدم بين فريقي جامعة تكساس وجامعة تكساس أي- إم . كانت الآن تحاول إقناعي من دون جدوى أن

اللباس الذي أرتديه لن يشكل مشكلة بالنسبة إلى الخريجين من طلبة جامعة تكساس أي- إم السابقين.

قالت والدتي: «لا تقلق! سوف يُفاجَؤون بذلك، سوف يكون الأمر مسلياً».

قلت في سري ساخراً: نعم سوف يكون مسلياً بالتأكيد. كل ما أتذكره من حفل الاستقبال في وسط المدينة، والحاضرين الذين كانوا يرتدون الملابس الفاخرة على شرفة في الطابق العُلْوي، أن أحد الخريجين، وكان ثملاً إلى حد ما، أتى من خلفي، وحاول رفع قميصي فوق رأسي. وكان زملاؤه من الخريجين الواقفين بالقرب مني يضحكون على حساب ارتباكي المراهق.

نعم، أظنان من التسلية يا أمي.

مع ذلك، كانت تلقي عليّ وعلى إخوتي دروساً في أهمية الخدمة العامة كطريق تحدث فرقاً إيجابياً، وتغير الأشياء إلى ما هو أفضل.

نشأنا، أنا وإخوتي في منزل ديمقراطي، تماماً مثل والديّ. كانت والدتي ديمقراطية معتدلة تميل نحو المحافظة، وأقرب إلى الوسطية السياسية عندما كانت تشغل منصب المحافظ في مدينة أوستن (بالرغم من أن المحافظين في ولاية تكساس والمرشحين لمجلس المدينة لا يرشحون لهذه المناصب تحت أي شعار حزبي). كان الائتلاف الذي تنتمي إليه يضم الجزء الأكبر من القسم الشمالي الغربي من المدينة الأقرب إلى المحافظين، والشرق الذي تقطنه غالبية ساحقة من الأمريكيين من أصول إفريقية، لكن سكان المناطق المدنية الليبرالية في محيط الجامعة كانوا يعارضونها. بشكل عام، كانت تعمل على الإبقاء على ضرائب منخفضة، وتتأكد من أن الخدمات في المدينة ممولة بشكل كامل، وتحافظ على نوعية الحياة الرائعة لمدينة أوستن في الوقت الذي تشجع النمو الاقتصادي. في تلك الحقبة، كانت مدينة أوستين في خضم نمو اقتصادي متعاظم - فقد ارتفع عدد سكانها من 322000 ألفاً إلى 461000 خلال عشر سنين - وأصبحت حجر الرحى التقاني، بالإضافة إلى كونها المدينة التي تضم الجامعة والحكومة.

كان لـدى والدتـي من الصرامة ما يكفـي لمواجهة البيئة المعبـأة سياسياً بحيث كانت قـادرة على معرفة كيـف تشكل ائتلافاً ناجحاً، وكيف تهيئ الأرضية المشتركة لإنجاز ما يجـب إنجازه، على الأقل حتى موعـد فترتها الثالثة عندما تحـول المجلس إلى الليبرالية بشكل واضح. تعلمتُ الكثير عن فن السياسة المتمثل في المداولات والإقناع الفكري، وكيفية طرح الحلول الوسط من أجل تحقيق ما تريد، وذلك عبر قضاء مدة لا بأس بها من الوقت في مجلس المدينة والغرف الخلفية مرافقاً لوالدتي. على أي حال، يمكن أن تكون السياسة في مدينـة أوستن صعبة الممارسة، ولم يكن من السهل تجاهل الأشياء القبيحة التي كانت تقـال عن والدتي. لكنني تعلمت مع إخوتي أن لا ندع الضيق الذي كنا نشعر به جراء ذلك يطفـو علـى السطح. من الصعـب أن لا تنظر إلى الأشياء من منظـور شخصي إذا كانت والدتـك هـي من يتم الهجوم عليها. إلا أن هذه الدروس التي تعلمتها في صبايَ جعلت من السهـل عليّ فيما بعـد أن لا أنظر إلى الأشياء من زاويـة شخصية خلال سنوات النضوج التي قضيتها في عالم السياسة المملوء بالمطبات والحفر!!

ربما كانـت التهديدات بالقتل التي تلقتها والدتي أثناء شغلها منصب المحافظ الجزء الأكـثر إزعاجاً. أعتقد أن تلك التهديـدات لم تطلق سوى مرات قليلة، كل واحد منها كان يطلـق أثنـاء انطلاق حملتها الانتخابية. أذكر أن أحد إخوتـي سمع صوت شخص عندما رفع سماعة الهاتف يقول: «سوف أقوم بقتل والدتك».

لم تترجـم هذه التهديدات أبـداً، ولكنني أذكر أن تهديدات كهذه أطلقت عندما كانت والدتـي تحضـر مباراة في دوري البيسبول للصغار كنت أشـارك فيها وكان تحيط بها ثلة من رجال شرطة أوستن بملابس مدنية على مدار الساعة.

تعلمـت أن للسياسة وجهاً قبيحاً لا يستطيع معظم النـاس استيعابه بشكل كامل أبداً. جعلتنـي هذه المعرفـة أشعر باحترام عظيم لـكل من يرغب في أن يقـدم التضحيات من أجـل القيـام بالعمل في مجـال الخدمة العامة. أظهـرت لي هذه المعرفة أيضـاً أن هناك بعض الأشخاص الغاضبين والمنفريـن الذين توفر لهم السياسة المجـال كي ينفسوا من إحساسهـم بالإحباط. لا يمكن أن تدع أشياء كهذه تردعك عن المطالبة بتحقيق ما تؤمن

بـه. وكمـا قال جدي لوالدتي مرة: «يا كارول، إذا لم يكن بمقدورك أن تجعلي شخصاً ما، يستثيط منك غضباً، فاعلمي أنك ربما لم تحققي شيئاً».

ارتدتُ وإخوتي المدارس الحكومية، وشاركنا في النشاطات اللا صفية، كما شاركنا في ألعـاب مختلفة من البيسبول إلى كرة السلة وكـرة المضرب واللعب في ملاعب كرة القدم ذات الأرضية الرملية. كنا نتشاجر بين الحين والآخر شأننا في ذلك شأن الإخوة الصغار في كل مـكان. ولما كنا متقاربين في السن، فقد كانـت روح المنافسة موجودة بيننا، إلا أنها قرّبتنا من بعضنا بعضاً عندما كان واحدنا يحتاج إلى الآخر.

لم تكن السياسة بعيدة عن أيٍّ منا في المدرسة أيضاً.

ففـي أعقـاب صدور الحكم الشهير عن المحكمة العليا سنـة 1971 بشأن قضية سوان ضد مجلس شارلوت- ميكلينبيرغ للتعليم، فإن منطقة المدارس المستقلة في أوستين كانت واحدة من العديد من المدن على امتداد البلاد التي خضعت لحكم قضائي يوجب استخدام الحافـلات وسيلةً لإلغاء الفصل العنصري. أعقب ذلك الحكم «نزوحاً للبيض» في أجزاء عديـدة من البـلاد، بما في ذلك مدينـة أوستن. بين سنتـي 1971 و 1972، أعادت بعض العائلات من البيض في مدينة أوستن تموضعها في مناطق المدارس المجاورة للمدينة.

في سنة 1972، تم انتخاب والدتي لعضوية مجلس المدارس في مدينة أوستين مع ثلاثة مرشحـين كانوا يواجهون معارضة من قائمة المرشحـين المعارضين لاستخدام الحافلات (كان بعضهـم يصفهـم بأنهـم من دعـاة الفصل العنصـري). فازت والدتـي بمقعدها في المجلس بأغلبيـة 75 بالمائة من الناخبـين، وما تزال تذكر باعتـزاز الطريقة السلمية والناجحـة لدمج المدارس، والتي قام بها مجلس المدارس، على امتداد السنوات الخمس التي قضتها فيها.

خـلال الفترة التـي قضتها والدتي في عضويـة المجلس، قامت بتطويـر خطة مركزية للصـف السادس الابتدائي كخطـوة أولى لإلغاء الفصل العنصـري في المدارس. بموجب هـذه الخطة، كان علـى التلامذة الذين درسوا في مدارس ابتدائيـةٍ غالبيةُ تلامذتها من

Obeikandi.com

البيض، استخدام نفس الحافلات التي يركبها أقرانهم الذين كانوا يدرسون في مدارسَ غالبيةُ تلامذتها من الأقليات لتقلهم إلى مدرسة تتوسط منطقتيّ أوستن لتلامذة الصف السادس. كانت الحافلة تقلني أنا وإخوتي من منزلنا في منطقة غرب أوستن، حيث كان الأولاد يرتادون مدرسة كاسيس الابتدائية، للدراسة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس في وسط مدينة أوستن. كما كان تلامذة المرحلة الابتدائية من المناطق التي غالبية سكانها من أصول إفريقية وإسبانية ينقلون أيضاً بواسطة الحافلات إلى مركز بيكر. لم يعتقد المجلس أن هذه الخطة أضافت عبئاً غير مبرر على أي من المناطق عبر نقل تلامذة من واحدة من المناطق إلى أخرى بواسطة الحافلات عبر المدينة. على العكس من ذلك، كان التلامذة من كلا المنطقتين يُقَلّون إلى نقطة تتوسط هاتين المنطقتين.

كنت رئيساً لمجلس التلامذة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس. كانت المدرسة ضخمة، ومختلفة إلى حد كبير عن المدرسة الابتدائية التي كنت أرتادها في جوارنا، والتي لم يكن يرتادها سوى عدد محدود من التلامذة من أصول إفريقية وإسبانية. أتذكر بكثير من الحنين السنة التي قضيتها في مركز بيكر. فلو لم تكن هناك حافلات ما كنت لألتقي بهيرمان هيل، وهو تلميذ من أصول إفريقية كان نائب رئيس مجلس التلامذة. وبالرغم من أن هيرمان اختلف معي بشدة حول زعمي بأنني لاعب كرة السلة الأفضل، فقد وافق على حضور مراسم زفافي بعد عشرين سنة على ذلك.

صادقت في مركز بيكر أيضاً، هيب فام الذي كان قد هاجر مع عائلته من فيتنام مؤخراً. كان هيب، التلميذ الذكي الذي كان ما يزال يتعلم اللغة الإنجليزية، يطلق عليّ تحبباً اسم تشاك نوريس (كان يلفظ الاسم بلكنته الفيتنامية «تشاك نور»)، وكنت بالمقابل أطلق على هيب الذي كان يلبس حزاماً أسود، اسم بروس لي. لم أتعلم رياضة الكاراتيه، لكن هيب حاول أن يعلمني بعض الحركات (لكن الدروس التي تلقيتها منه لم تبقَ في ذاكرتي). كانت صديقتي التي هجرتني فيما بعد، واسمها كاميل موجيكا من الصف السادس، فتاة جميلة وذكية من أصول إسبانية. ولم تكن مثل هذه الصداقات مألوفة في تلك الأيام.

كان ترحيبي بالاندماج بين الأعراق جزءاً من إرثي العائلي الذي يعود إلى ما قبل موقع والدتي في إدارة مجلس المدارس. أثناء فترة استلام جدي مهام العمادة بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما، قام بالإدلاء بشهادته في قضية إيدا سيبويل فيشر، وهي امرأة سوداء وقفت في وجه القانون الذي أقرته الولاية لعزل الطلبة السود في كلية القانون، وقد تمت المحاكمة في منطقة معزولة من داخل مبنى الكابيتول. فقد سبق للولاية أن تسرعت في افتتاح كلية القانون في أعقاب صدور حكم قضائي من المحكمة العليا بشأن دعوى سبق لفيشر أن أقامتها وتقضي بأن أوكلاهوما لا يمكن لها أن تمتنع عن توفير فرصة تدريس القانون للجميع. استذكر بروفسور القانون السابق من ولاية تكساس، وخبير القانون الدستوري الشهير على مستوى البلاد تشارلز آلان رايت في احتفال تأبيني لجدي أقيم سنة 1999 أنه «لم يكن من المدعاة للدهشة أنها لم تشعر أن ذلك كان يشكل حماية «مساوية» يضمنها لها التعديل الرابع عشر للدستور»، وتابع قائلاً: «استطاعت أن تفرض فعلاً جديداً في محكمة الولاية عبر تحديها لدستورية كلية القانون الفورية تلك».

بعد دعوته للإدلاء بشهادته من قبل المحامي ثورغورد مارشال، الذي أصبح فيما بعد، قاضياً في المحكمة العليا، ذكر جدي أن «الكلية الجديدة لا يمكن بأيّ حال من الأحوال اعتبارها مساوية لكلية القانون العريقة في جامعة أوكلاهوما».

وكما قال رايت في مرثاته، فلقد أدلى جدي بشهادته في منتهى الهدوء والعقلانية، بعكس أحد زملائه من الشباب في عضوية هيئة التدريس بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما الذي أخذ جانب فيشر في القضية، لكنه كان عاطفياً وأقل قدرة على كبح جماح انفعالاته أثناء التعليقات التي أدلى بها. دفعت شهادة البروفسور الشاب مناصري الفصل العنصري في أوكلاهوما إلى مطالبة مجلس الجامعة بفصله. قام جدي بصفته عميداً للكلية، بإرسال رسالة إلى مجلس الأمناء يدعم فيها حق الأستاذ في التعبير عن آرائه بحرية، مشيراً إلى «الضرر الذي سيلحق بسمعة الجامعة على الصعيد الوطني لو تم فصل ذلك الأستاذ من عمله بسبب التعبير الصادق عن رأيه حول الفصل العنصري». وانتصر منطق دفاع جدي عن الأستاذ. أخبره رئيس المجلس فيما بعد، أنه لو لم يرسل

تلك الرسالة، لكان ذلك الأستاذ قد طرد من وظيفته. اشتهر جدي فيما بعد، وعلى مر السنين، بالتعاقد مع أفضل الأساتذة من ذوي الآراء المتباينة، وكان يدافع عن حقهم في ممارسة الحرية الأكاديمية عندما كانوا يطرحون آراء مثيرة للجدل.

عند عودته إلى منصبه كعميد، أشرف جدي على عملية الدمج السلمي التي تمت في كلية القانون في جامعة تكساس بعد قرار المحكمة العليا بشأن قضية سويت ضد بينتر، وهي قضية شهيرة أخرى كانت تمر عبر أروقة النظام القانوني عندما كان جدي ما يزال يعمل في جامعة أوكلاهوما. كانت عائلتي كلها تشعر بالفخر لأن عميد أسرتنا كان بطل الدعوة إلى المساواة في الحقوق وحرية التعبير، كما أن اهتمامي الشخصي بالعمل في مجال الخدمة العامة يعود الفضل فيه بدرجة كبيرة إلى الإلهام الذي كان يمنحني إياه.

في نهاية المطاف، عملت رئيساً للمجلس الأعلى للطلبة في المرحلة المتوسطة، ثم رئيساً لمجلس الطلبة في مدرسة أوستن الثانوية، وهو الموقع نفسه الذي كانت والدتي تتبوأه منذ تسع وعشرين سنة.

خلال فترة رئاستي للمجلس الأعلى للطلبة، نشأت صداقة بيني وبين زميل لي، كان رئيساً لمجلس طلبة مدرسة جونستون الثانوية في مدينة أوستن، واسمه جون بار. كان قد نشأ بدوره في جو سياسي. فقد كان والده صديقاً مقرباً ومستشاراً لعضو الكونغرس حينها جيك بيكل الذي كان عضواً في مجلس النواب عن مدينة أوستين وكان قد خلف ليندون جونسون في الكونغرس. في السنة التي تعرفنا إلى بعضنا بعضاً، كانت والدتي تخوض الانتخابات ضد بيكل (وخسرتها حينها). في السنين التي تلت تعارفنا، تحدثنا، جون وأنا، عن ظاهرة كيف أنه بالرغم من أننا ننتمي إلى حزبين مختلفين تماماً، فإن آراءنا السياسية متشابهة إلى حد بعيد. غالباً ما كنا نتحدث عن الخطر الذي يواجه الديمقراطية بسبب المتشددين والأيديولوجيين التطهيريين الذين لا يقبلون بالحلول الوسط من كلا الحزبين.

أقلعت عن أنواع الرياضة كافة في المرحلة الثانوية عدا كرة المضرب التي برعت فيها لدرجة أنني أصبحت أحتل المرتبة الأولى في الفردي والزوجي. وقد حل فريق مدرستي الثانوية في المرتبة الثانية على مستوى الولاية في تلك السنة.

كان تحصيلي في المرحلة الثانوية جيداً، فقد تخرجت بمرتبة الشرف وكنت من بين العشرين من المئة الأوائل في صفي، لكن أداء أخويّ الأكبر مني سناً كان أفضل من أدائي، فقد ألقى أحدهما خطبة الترحيب في حفل التخرج وألقى الثاني خطبة الوداع فيه (لقد سبقه أخواه التوأم).

بعد أن داعبت مخيلتي فكرة الانضمام إلى الأكاديمية البحرية ولعب كرة المضرب هناك، قررت البقاء في موطني، والانضمام إلى جامعة تكساس. انضممت إلى الأخوية التي كان اثنان من إخوتي أعضاء فيها، وتابعت الدراسة بغية الحصول على شهادة في الدراسات الحكومية. بالإضافة إلى ذلك، عرض علي مدرب كرة المضرب ديف سيندار موقعاً في فريق كرة المضرب الذي يحتل المرتبة الأولى، من دون أن يؤهلني هذا العرض للحصول على منحة دراسية. وبعد أن تبين لي أن فرصي في جعل هذا الفريق ينتقل إلى الدور الثاني قليلة، انتهى بي المطاف إلى ترك موقعي في فريق كرة المضرب في منتصف الطريق عندما كنت في السنة الدراسية الثانية.

بحلول منتصف السنة الأولى من دراستي في الجامعة، انتخبت رئيساً لجماعة «سيغما في إيبسيلون Sigma Phi Epsilon» التي يزيد عدد أعضائها عن 120 عضواً ولمدة سنة. كانت الأخَويات في تلك الفترة تخضع لمراقبة لصيقة من قبل الجامعة ومدعي عام المقاطعة بسبب الغموض المستمر الذي يكتنفها.

كان الغموض جزءاً من نظام ثقافة الأخويات في جامعة تكساس، ولهذا النظام تاريخ طويل من سوء السمعة على الصعيد الوطني. لم تكن هذه الأخويات جزءاً من ثقافة الجامعة التي أشعر حيالها بالارتياح. عندما كنت طالباً في السنة الأولى، توفي مارك سيبيرغر، وهو عضو في أخوية أخرى، جراء تسمم كحولي في قضية غامضة. ثم فقدت

فيما بعد صديقاً من أيام الطفولة، وكان شاباً ممتازاً من النواحي كافة، اسمه سكوت فيليبس الذي كان قد انضم إلى إحدى الأخويات، وتورط في حادثة غامضة أدت إلى وفاته. (عندما كان يعمل كمدرب متطوع، وقع من على جرفٍ عالٍ بينما كانت تتم مطاردته من قبل مجموعة من الشبان المتطوعين المتورطين في «غموض معاكس».)

دفعتني حوادث مثل هذه، كما آخرين من جامعة تكساس، إلى الإحساس بضرورة تغيير ثقافة الغموض هذه. كان مركز أخوية سيغ إيب Sig Ep يعمل بدأب لحث الجماعات التي تنتمي إليه على السير ضمن توجه جديد أكثر إيجابية. لم يكن من السهل فرض مثل هذا التغيير، لكنني قررت أن أحاول القيام بذلك - جزئياً بحكم الضرورة، وأيضاً بحكم الاختيار بعد التجربة المؤسفة التي مررت بها في رئاسة الجماعة.

استلمت مسؤولياتي رئيساً للجماعة قبل عطلة عيد الميلاد في سنتي الأولى بالجامعة. عندما عدنا إلى الكلية، وكما كانت التقاليد تقتضي، كان صف التطوع الخريفي يمارس طقوسه في الأسبوع الجهنمي غير الخاضع للرقابة. كان هذا يتضمن الحرمان من النوم، والكثير من الغموض الكلامي، وبعض الغموض الجسدي أيضاً. وبحكم أنني مررت بتجربة الغموض في مرحلة التطوع، فقد كنت أعتبرها طريقاً خاصة للتعبير عن الحب الأخوي.

أثناء هذا الأسبوع الجهنمي الخاص، كانت الأمور تخرج عن السيطرة. فقد أصيب أحد المتطوعين في عينه في لحظة من الإرهاق شبه التام الناجم عن عدم النوم في وقت متأخر من إحدى الليالي. كانت حادثة غريبة - فقد انسكب في عينه صباغ شعر من أحد الذين كانوا يلبسون ثياباً توحي بالجنون كجزء من الطقوس الغامضة، مما أدى إلى فقدٍ مؤقت لبصره. أحضره أحد الإخوة المنتمين إلى الأخوية إلى غرفتي في بيت الأخوية. نقلناه حالاً إلى غرفة الطوارئ حيث تمت معالجته وإعادته إلى منزله في صباح اليوم الثاني.

عبر الأطباء حينها عن القلق من أن الإصابة في عينه يمكن أن تؤثر عليه لبقية حياته. وبالرغم من ذلك أصر المتطوع على أنه غير راغب بإثارة مشكلة بسبب هذه المسألة. قلت

لــه إن عليــه أن يفعل ما يعتقد أنه صواب بغض النظر عما يمكن أن يعنيه ذلك للآخرين، ولكـن تبين لي أيضاً أن المشكلة الغامضة كانت ضرورية بالنسبة لأخويتنا من أجل أن يتم التعامـل معها بصـدق وبوضوح، وأن التغطية على حادثة من هـذا النوع لن يكون لها وقع إيجابي على المدى الطويل.

بعـد أن ناقشت المسألة مـع مستشار الجماعة وهو خريج متطـوع، اتفقنا على أنه من الأفضل القيام بإعلام مجلس خريجي الجماعة الذي كان يضم محامين كانوا محقين في قلقهم بشأن المسؤولية المحتملة. قلت للخريجين إنني أتحمل المسؤولية عن نتيجة أي عمل قـد نضطر إلى القيام به. قـرروا أخيراً معالجة الموضوع داخلياً، لكننـا جميعاً اتفقنا أن هذه الثقافة الضبابية يجب أن تتوقف داخل الأخوية، مرة وإلى الأبد.

وقفـت في اجتماعات الجماعة، وحثثـت بقوة بصفتي رئيساً على وجوب إلغاء فعاليات الأسبـوع الجهنمـي في المستقبل. كان هذا موقفاً متصلباً اتخذتـه حينها. كان عليَّ أنا أن أتحمـل الجـزء الأكبر من الانتقاد من زملائـي وإخوتي من أعضـاء الأخوية الذين كانوا يعتـبرون أن الضبابيـة فعلٌ يمارسـه الجميع في جامعـة تكساس منذ مـدة طويلة. كانوا يتساءلـون عن السبب الذي يدفـع جماعتنا إلى طلب التغيير بسبـب حادثة واحدة تورط فيهـا متطوع لم تكـن لديه أي مشاعر حقد بسبب ما جرى لـه. لم يقم مجلس الخريجين بـأي فعل داعم لي في العلن. ربمـا كانوا ولسبب مفهوم، شديـدي الحساسية تجاه تحمل المسؤوليـة عـن هذا الموقف الذي لا يتمتـع بالتأييد بين أعضاء الأخويـة. إلا أنني تمسكت بموقفـي بالرغم من أنني كنت وحيـداً في ذلك الجانب. كلفني ذلك الموقف خسارة بعض الصداقـات، والتسبـب في ارتفاع بعض أصـوات الانتقاد. كنت متصلبـاً في موقفي لأنني كنت مؤمناً بأن هذا ما يجب أن يتم، وأن هذا هو عين الصواب. انضم إليّ لاحقاً عدد من أعضاء الأخوية. وتوصلنا بشكل فعلي إلى وقف الضبابية في أخويتنا – على الأقل مؤقتاً.

لسوء الحظ، لم يستمر هذا التغيير طويلاً. إذ قررت مجموعة صغيرة من الأعضاء في الخريف الثاني، بعد جولة من احتساء الخمر، اصطحاب بعض المتطوعين ليمارسوا متعة التجذيف.

obeikandl.com

بعد المحاولات التي قمت بها من أجل معاقبة أولئك المتورطين في تلك القضية، وصلت إلى لحظة الحقيقة. فإذا كان أعضاء الأخوية قد اتخذوا قراراً بالاستمرار في تلك الطريق المؤدية إلى تدمير الذات في وقتٍ كانت المواقف تتغير بسرعة حول مسألة قبول مثل هذه التصرفات، فسيكون هذا هو خيارهم في المرحلة الجامعية الأولى. لكنني قررت أن لا أكون جزءاً من هذه العملية. انتهى بي المطاف إلى تقديم استقالتي من رئاسة الأخوية قبل عدة أشهر من انتهاء ولايتي. في الوقت نفسه، بقيت أمارس نشاطي كواحد من أربعة قادة طلابيين عملوا مع إداريي الجامعة لتطوير الأساليب المناسبة للتحرك بعيداً عن الضبابية.

لسوء الحظ، وبالرغم من الجهود المستمرة التي بذلت من أجل إنهاء هذه الضبابية، فقد تواصل هذا الشر الاجتماعي في جامعة تكساس وفي أماكن أخرى. أقرت ولاية تكساس تشريعاً يجرّم الضبابية، كما تبنت جامعة تكساس قواعد صارمة تمنع بموجبها الضبابية وتطالب ضحاياها الإبلاغ عن الحوادث التي تسببها إلى مكتب العميد. علقت نشاطات العديد من التنظيمات في الجامعة على مر السنين بسبب خرق هذه القواعد. ومع ذلك، ما تزال الضبابية مستمرة. ففي كانون الأول، ديسمبر سنة 2005، توفي أحد المتطوعين في أخوية «لامبدا في إيبسيلون Lambda Phi Epsilon» نتيجة لحادثة ناجمة عن الضبابية. وبسبب تلك الحادثة، فقد تم تعليق هذه الأخوية حتى سنة 2011، كما وجهت اتهامات جنائية لثلاثة من أعضاء الأخوية. من المحزن جداً أن مآسٍ كهذه تستمر في تلطيخ السجل الجيد لمؤسسة عظيمة مثل جامعة تكساس.

كان لهذه التجربة الجامعية تأثير عليّ لم تستطع السنون محوه. أهم ما في الأمر، فقد كشفت لي هذه التجربة كم هي صعبةٌ محاولةُ تغيير ثقافة سلبية كرست وجودها في إحدى المؤسسات على مر السنين. فبالرغم من أن الحاجة إلى التغيير في غاية الوضوح، وبالرغم من أن بعضهم من ذوي النيات الحسنة يناضلون من أجل إحداث هذا التغيير، فإن عدم المبالاة الاجتماعية والدوافع الأنانية لثلة من الأفراد الذين يستفيدون من النظام السائد تتسبب في جعل المحاولات المبذولة من أجل الإصلاح التنظيمي صعبة

المنـــال. وهو درس ينبغي على أولئك الذين يريدون إصلاح الثقافة السياسية المفلسة في واشنطن أن يأخذوه على محمل الجد.

فتحـت استقالتـي مـن رئاسـة الأخويـة في أوائـل خريـف سنـة 1989 الطريق لي للاستثمــار في فرصة أخرى – تبين فيما بعد أنها كانت حاسمة في تحديد مسار مهنتي. كنت علـى مسافة فصلين دراسيين لإنهاء متطلبات التخرج من جامعة تكساس بالرغم مـن أننـي لم أكن قد قررت حينها ما الذي سأفعله بعـد التخرج. ونظراً لعبء المقررات الدراسيـة الخفيف نسبياً، والـذي كنت مطالباً به في ذلك الوقت، ولكوني أتمتع بفسحة مـن وقـت فراغ ناجم عـن انتهاء التزاماتـي تجاه الأخويـة، فقد قمـت بالاتصال ببيل تريـون، وهو أحد الخريجين الذين كانوا ينتمون إلى أخوية «سيغما في إيبسيلون» عندما كنـت في السنتـين الأولى والثانية من دراستـي الجامعية، وكان حـين اتصالي به يعمل لصالـح الحملـة الانتخابية للحاكم الجمهوري. أخبرت بيل بـأن لدي متسع من الوقت، وبأننـي أرغب بالتطوع مـن أجل اكتشاف معنى أن يكون المرء جـزءاً من حملة سياسية علـى مستوى الولاية. كان ذلك يشكل نمواً طبيعياً منبثقاً من تاريخي العائلي، كما أنني أحببت الفكرة لأنني ظننت أنها ستقدم لي فرصة للعمل في مدينة أوستن.

لماذا ركزت على هذه الفرصة في الحزب الجمهوري؟ لم يكن هذا الاختيار يعكس ميلاً أيديولوجياً قوياً محدداً. شعرت بشكل عام، براحة أكبر في جو الحزب الجمهوري في ولاية تكساس الذي يميل نحو المحافظين؛ إلا أن انتمائي كان مبعثه إرثي العائلي، وليس العقيدة المحافظـة المتصلبة. خلال الثمانينات، لحقـت بوالدتي كما العديد من ديمقراطيي ولاية تكساس الذين هاجروا إلى الجمهوريين.

كانـت تكساس ولاية الحـزب الواحد لأكثر من مئـة سنة، أي منذ فـترة نهاية إعادة البنـاء التي أعقبت الحـرب الأهلية. ومع ذلك، فقد كان طيلة هذه الفترة جناح محافظ، وآخـر ليـبرالي في الحزب الديمقراطي بولاية تكساس. أصبحـت ولاية تكساس منذ سنة 1980 تصوت للجمهوريين في الانتخابـات الرئاسية. اعتقد العديد من ديمقراطيي ولاية

Obeikandi.com

تكساس خلال عقد الثمانينات أن الحزب الديمقراطي على الصعيد الوطني قد ذهب بعيداً باتجاه اليسار. كانت والدتي من بين كثيرين ممن اعتقدوا ذلك، وكذلك أنا. غيرت ولاءها الحزبي سنة 1985 أثناء فترة ثورة ريغان. ترشحت لعضوية الكونغرس عن الحزب الجمهوري في السنة اللاحقة (وخسرت حينها أمام عضو الكونغرس جيك بيكل.) كان ذلك في السنة التي بلغت فيها سن الثامنة عشرة؛ في الواقع، كان أول صوت أدليت به في اقتراع كان لوالدتي في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري. أدليت بصوتي سنة 1988 لأول مرة في الانتخابات الرئاسية لصالح جورج بوش الأب، الذي التقيته للمرة الأولى أيضاً أثناء احتفال انتخابي لصالح والدتي (لم أتوقع أن أتعرف عليه بشكل شخصي أكثر بعد خمس عشرة سنة على ذلك اللقاء).

أعاد بيل الاتصال بي عصر ذلك اليوم وسألني إذا كنت أرغب في العمل مساعداً صحفياً بدوام جزئي لصالح كليتون ويليامز، المرشح لمنصب الحاكم. كان ويليامز رجل أعمال ذا شخصية تضج بالحيوية جمع ثروة شخصية عن طريق الاستثمارات الناجحة في الغاز الطبيعي، والعقارات، والمصارف، ووسائل الاتصال. حتى إنه ظهر أيضاً في بعض الإعلانات التجارية التلفزيونية الناجحة عن شركة الاتصالات الهاتفية «كليديستا» للمسافات البعيدة، التي يملكها، والتي أسماها تيمناً باسمه واسم زوجته موديستا، وهو يرتدي بذلة رسمية وقبعة راعي بقر. وعد كليتون بأنه سوف يحضر أسلوبه التكساسي المميز، وذكاءه كونه رجل أعمال، وموقفه الحازم ضد الجريمة إلى قصر الحاكم في مدينة أوستن. لكنه كان سياسياً ساذجاً، وعديم الخبرة إلى درجة كارثية.

بعد لقائي بالسكرتير الصحفي بيل كينيون، تم التعاقد معي مباشرة وبدأت العمل في الحال. من بين الواجبات الأخرى التي تطلبتها مقتضيات الوظيفة هي أنه عليّ التواجد في المكتب الساعة السادسة من صباح كل يوم قبل الجميع وذلك لمتابعة ما تكتبه الصحف الرئيسة، وأخذ قصاصات منها، ونسخ القصص المهمة المتعلقة بالحملة الانتخابية، بالإضافة إلى القضايا الرئيسة التي تهم الولاية وذلك كي تكون في متناول الجميع بمن فيهم المرشح نفسه لقراءتها مباشرة. وازدادت الساعات التي التزمت

obeikandi.com

العمـل فيها، والتي تراوحت من عشرين إلى خمس وعشرين ساعة في الأسبوع، إلى ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين ساعة أسبوعياً.

وقعت عقداً للعمل في حملة ويليامز لمنصب الحاكم في فترة مبكرة من حياتي المهنية، وكانـت نقلـة جيدة بالنسبة إلى شاب لـه طموح سياسي مثلي، ذلـك أن التزامي والجهد الـذي كنت أبذله كانا لافت انتباه. انتهى الأمر بويليامز إلى الفوز بالانتخابات التمهيدية لمنصـب الحاكـم بأغلبية ساحقة، هازماً ثلاثة من منافسيـه المشهورين من دون الحاجة إلى إجـراء انتخابـات جديدة - وهو إنجاز مؤثـر لمرشح يتقدم إلى هـذا المنصب للمرة الأولى. وقـد ساعده في الفوز الكـم الكبير من أمواله الشخصيـة التي ضخها في الحملة الانتخابيـة، بالإضافـة إلى جاذبيتـه التـي استقطبت الناخبـين، وبدا وكأنـه يمثل وعداً عظيمـاً استحوذ على توق الناخبـين الذي لا ينقطع، بتحقيق شيء مختلف عما يعدهم به أي سياسي نمطي.

بعد فترة وجيزة من انقضاء الانتخابات التمهيدية، سألني كينيون عن رغبتي في العمل بـدوام كامل في وظيفـة صحفية ذات دور أكـثر أهمية وتتلخص في السفـر قبل ويليامز، المرشـح، والتأكد مـن أن المناسبات العامة بما في ذلك المؤتمـرات الصحفية معدة بشكل جيـد، وكذلك الستائر الخلفية للمنصة ومواقع الكاميرات، وأن ويليامز سيقدم له عرض مختصـر حول المظاهر المهمة للحـدث. اقتنصت الفرصة وأجّلتُ التقدم إلى الامتحانات النهائيـة في ذلك الصيف. كان مـن المثير جداً الانتقال إلى الصفـوف الأولى في الحملة الانتخابيـة واغتنام الفرصة كي أتعرف جيداً علـى الشخص الذي سيكون الحاكم المقبل لولاية تكساس.

انتهـى ويليامز من الانتخابـات التمهيدية بتبوء موقع قوي، وبزخـم يتعاظم يوماً بعد يوم، متقدماً على منافسته الديمقراطية المحبوبة التي تضج بالحيوية آن ريتشاردز بفارق كبـير وواضح. كانت لويليامز جاذبيـة شعبية محافظة. كان ينظر إليـه على أنه شخصٌ مـن خارج اللعبة، وكرجل أعمال ناجح قادر على الوقـوف في وجه بيروقراطية الولاية في أوستن، وعصرنة الحكومة، يحارب الجريمة بشكل فعال (كان يمكن له أن يعلم المجرمين

«متعة تفتيت الصخور»)، ويمثل على أكمل وجه القيم التي تشترك فيها غالبية المحافظين في ولاية تكساس. أما ريتشاردز، فإنها وبالرغم من أنها كانت محبوبة على الصعيد الشخصي، فإن العديد من الناخبين كان ينظر إليها كتقدمية أو ليبرالية أكثر من اللازم في ولاية مثل تكساس، كما أن خطابها سنة 1988 في مؤتمر الديمقراطيين الوطني الذي هاجمت فيه جورج هيربرت ووكر بوش التكساسي عزز هذا الانطباع عنها.

عملت ريتشاردز مندوباً لمقاطعة ترافيس في ولاية أوستن عندما كانت والدتي تشغل منصب المحافظ، ولذلك فقد التقينا في مناسبات سياسية عندما كنت صغيراً. عندما خاض ويليامز معركته الانتخابية ضدها للفوز بمنصب الحاكم، كانت تحتل منصب أمين الخزانة في الولاية. كنت أعلم أن لديها الكثير من الجاذبية الشخصية، وأن من الصعب الفوز عليها، حتى عندما كان ويليامز متقدماً عليها بمعدل عشرين نقطة بعد الانتخابات التمهيدية. كنت أرى أنها تقبع في أقصى يسار الوسط، وكنت أعرف نقاط ضعفها حول هذه القضايا، لكنني كنت أعلم أيضاً مدى مهارتها في ضبط إيقاع موقعها أمام الجمهور وإعطاء الانطباع أنها تسير في الخط العام.

بعد الانتخابات التمهيدية مباشرة، بدأت مظاهر انعدام الخبرة السياسية لويليامز تؤذيه انتخابياً، حيث إنه أبدى بضع ملاحظات خرقاء وأفلتت منه زلات لسان مباشرة. على سبيل المثال، رفض ويليامز مصافحة ريتشاردز بعد انتهاء إحدى المناسبات لأنه سبق أن أبدى انزعاجه من حملة شعواء مجهولة المصدر شُنّت عليه، ولأنها لم تكلف نفسها عناء إدانة هذه الحملة ضده. لكن رجال ولاية تكساس يفاخرون بتهذيبهم؛ وهكذا فإن طريقة ويليامز في تقريع منافسته علناً وبهذه الطريقة – والأنكى من ذلك، أنها سيدة – اعتبرت أنها تجاوز لكل الحدود.

كانت نكتة بذيئة أطلقها ويليامز أثناء جلسة صحفية غير رسمية في مزرعته أسوأ من تلك الحادثة بكثير. كان الطقس سيئاً في ذلك اليوم. مازح ويليامز مجموعة من الصحفيين قائلاً إن الطقس السيئ «يشبه إلى حد ما، الاغتصاب. وطالما أن عملية الاغتصاب لا يمكن مقاومتها، فالأفضل هو أن تسترخي وتستمتع بها». لم تكن هذه

المزحة مجرد تجسيد لخطيئة سياسية، بل كانت ملاحظة فظيعة انتفت منها كل المشاعر الإنسانية، وكانت حقيقة أن ويليامز يخوض معركته الانتخابية ضد امرأة، قد جعلت الأمر أسوأ بكثير بالنسبة إليه. تم إبلاغي فيما بعد أنه حالما خرجت هذه الكلمات من فمه، انبرى السكرتير الصحفي لويليامز، وتوجه بسرعة إلى الصحفيين قائلاً: «إن ما قيل ليس للنشر». لكن صحفياً واحداً على الأقل من بين الحاضرين أشار، وكان محقاً في ذلك، إلى أن أحداً لم يوافق على ذلك مسبقاً — كان كل ما كتبه الصحفيون يتمحور حول هذا التعليق. وكان لا بد للنكتة التي أبداها ويليامز أن تشق طريقها إلى عناوين الصحف وتتصدر التغطية التلفزيونية – وهذا ما حصل في اليوم الثاني.

ربما كان المرشح يخدع نفسه عندما أخبر أركان حملته أنه لا ضرورة للمبالغة في توقع التأثير السلبي الذي ستحدثه زلة اللسان تلك. بالطبع، كان يجانب الواقع إلى حد كبير. أمرني السكرتير الصحفي في اليوم الثاني أن أجمع كل القصاصات الإخبارية التي قامت بنشر عبارة ويليامز والتعليق عليها، وأن أنهض باكراً صبيحة نهاية الأسبوع تلك، للإجابة على المكالمات الهاتفية وذلك لكي يرى المرشح بأم عينيه عمق وفداحة الغضب الشعبي بسبب عبارته تلك. كانت أجهزة الهاتف في مكاتب حملتنا الانتخابية لا تتوقف عن الرنين، وكنت في البداية الوحيد الذي كان يجيب على هذه المكالمات كما طلب إليّ أن أفعل. اعتبر التكساسيون عبارة ويليامز إهانة شخصية. أذكر ما قالته لي إحدى المتصلات وهي تتحدث بصوت تخنقه الدموع عن حادثة اغتصاب مأساوية تعرضت لها شقيقتها، وكيف أن هذا الاعتداء العنيف أدى إلى تشويه دائم لها وترك ندوباً عاطفية لا تندمل؛ وطالبتني بحقها في أن تسأل كيف يمكن لمرشحٍ لمنصب الحاكم أن يتحدث بمثل هذه الخفة عن قضايا كهذه. لم تكن لدي أي إجابات أو أعذار كي أقدمها لها. ما استطعت فعله اقتصر على التعبير عن أخلص تعاطفي، والتأكيد لها بأن رسالتها سوف تصل إلى الجهة المقصودة. وهذا ما قمت به بالفعل، ولويليامز شخصياً على (سماعة) الهاتف عندما اتصل بي كينيون، السكرتير الصحفي، وطلب إليّ قراءة بعض هذه المكالمات.

كان مقرر «القيادة» الذي قامت بتدريسه سارة ويدينغتون واحداً من المقررات المفضلة بالنسبة لي في جامعة تكساس. هذه الأستاذة هي صديقة قديمة لآن ريتشاردز والمعروفة

عـبر تمثيلها ل«جـين لو» المجهولة، في قضية رو ضد ويد، وهي القضية التي أدت إلى جعل الإجهاض قانونياً في كل أنحاء الولايات المتحدة. كان عدد الطلبة المسجلين في هذا الصف قليـلاً نسبيـاً بمعايير جامعـة تكساس، ولم يسجـل في هذا المقرر سـوى عدد محدود من الطلبة المتميزين والمهتمـين بالسياسة، وكان هذا المقرر يقدم المتعة والفائدة. كنت وقتها مـا أزال أعمـل بدوام جزئي في حملـة ويليامز الانتخابية. كانـت مناقشاتنا حادة ولكنها كانـت دائمـاً ودية ما عدا ذلك اليوم الذي تلا تعليق ويليامز، عندما وجه إلي زملائي في الصـف الأكثر ميلاً لليبراليـة عبارات قاسية. استطعت في نهاية المطاف أن أحملهم على إعطائي فرصة للكلام، وأهدئ من روعهم عبر تأكيدي لهم بأن تلك العبارة كانت مهينة، وتذكيرهم أيضاً بأنني لست أنا من تلفظ بتلك العبارة.

تهاوى تقدم ويليامز الواضح في استطلاعات الرأي إلى لا شيء في واقع الأمر، بسبب زلـة اللسان تلك،؛ بالإضافة إلى زلات أخرى مشابهة مع حلول يوم الانتخاب. ومع ذلك فقـد كاد أن ينجح في تلك الانتخابات بفضل جاذبيتـه الشعبية. لكن ريتشاردز تقدمت عليه بفارق ضئيل.

تلـك كانت تجربـة مؤلمة استطعنـا أن نتعلم منها نحـن الذين عملنـا لساعات طوال لصالـح مرشـح كنا نعده ذكيـاً وواعداً. وكترجمـة للوعد الذي قطعته علـى نفسي بأن لا أعـود إلى عـالم الحملات السياسة المليـء بالمطبات، فقد شاركت لفـترة قصيرة بواحد مـن المشروعات التجارية الـذي أسس له بعض زملائي الذين كانـوا ضمن فريق الحملة الانتخابية، قبل أن أقرر أن أقوم في الصيف الثاني بالعودة إلى الجامعة لإكمال متطلبات الحصول على شهادتي الجامعية الأولى.

لكـن الوعد الذي قطعته علـى نفسي بعدم العودة إلى عالم الحمـلات الانتخابية كان مجرد وعد مؤقت. فبعد حصولي على الشهادة الجامعية في الصيف الثاني، أمضيت ست سنوات متأرجحاً بين حملة انتخابية وأخرى، ومحاولات كسب القواعد الشعبية السياسية، وحكومة ولاية تكساس.

obeikandl.com

في سنة 1994، وبناء على طلب من والدتي، أدرت الحملة الانتخابية الناجحة الأولى لها بغية الوصول إلى موقع منتخب على مستوى الولاية. في أعقاب فوزها على المحافظ الديمقراطي، طلب إليّ سيناتور الولاية، توم هيوود أن أعمل بصفة رئيس لأركانه. سبق وأن أدرت حملته الانتخابية في سنة 1992، التي خسرها بفارق ضئيل ضد السيناتور المتمترس في موقعه، والذي كانت الاستطلاعات تشير إلى أنه سيفوز فوزاً ساحقاً في تلك الانتخابات. نشأت صداقة قوية بيني وبين توم، وكذلك بيني وبين ابنته البارّة دينيز، التي كانت تشرف على مصالح والدها عن كثب، خصوصاً بعد إصابته بمرض باركنسون.

لم يمنع المرضُ توم من القيام بمهامه كسيناتور، كما عملت معه لمدة ثمانية أشهر بما فيها مساعدته في المباشرة في فترته التشريعية الأولى كما اتفقنا. طلبت إليّ والدتي من جديد مساعدتها في حملة إعادة انتخابها التي فازت فيها بسهولة. بعد ذلك عملت في موقع القضايا الحكومية لحساب سلطة نهر كولورادو الأدنى (LCRA)، وهي شبه وكالة تتبع للولاية، قبل البدء في إدارة السباق الثاني لوالدتي، وكان السباق هذه المرة من أجل الفوز بمنصب أمين خزانة ولاية تكساس القوي النفوذ. في كل واحدة من هذه الحملات كنت أعمل أيضاً بصفة الناطق الرئيس.

في شهر كانون الثاني، يناير، سنة 1999، كنت أخطط للعودة إلى العمل لصالح سلطة نهر كولورادو الأدنى عندما قابلتني كارن هيوز، مديرة الاتصالات في مكتب الحاكم بوش، حاملة إليّ دعوة ستغير مجرى حياتي.

obeikandi.com